

إشكالية المصطلح النقديّ النسقيّ في الجزائر

د. خلف الله بن علي
أستاذ محاضر بالمركز الجامعي الوشريسي
تيسمسيلت

ملخص:

أهم ما ورد في هذا البحث هو تسليط الضوء على واقع المصطلح النقدي في المدونة النقدية النسقية الجزائرية، منطلقين في ذلك من إثارة هذه القضية في النقد العربي، وقد لاحظنا أنّ هذا المصطلح أضحي قضية تؤرّق الباحثين في هذا المجال؛ نظرا للاضطراب والاختلاف الحاصلين بين جل النقاد العرب في ترجمته وتبنيه، وقد ركزنا على هذه المسألة في النقد الجزائري، وبيّنا بالأمثلة والتحليل والاستقراء مدى الاهتمام الذي انصبّ على هذا الحقل من المعرفة لأهميته. كما تعرضنا لقضايا مهمة تتعلق به وهي الترجمة والتعريب وابتكار مقابلات عربية دقيقة لهذه المصطلحات الغربية المنشأ والثقافة والروح.

تمهيد:

يعاني الخطاب النقدي العربي إشكالية كبيرة في ترجمة للمصطلحات - ودون التطرق إلى مشاكل الترجمة وما ترتب ويترتب عنها يجب الإشارة - هنا- إلى أنّها كوسيط تلعب دورا محدودا وناقصا في الثقافة العربية، فغياب المترجمين المتخصصين في مجال النقد عموما، والنقد النسقي بالخصوص، وتشابه الاهتمامات، وغياب المعاهد ومراكز خاصة للترجمة العلمية في البلاد العربية، جعلها عمل أفراد، لأنّ غياب التنسيق والعمل المنظم والموجه على صعيد استثمار عملية الترجمة في تحقيق التواصل والتفاعل يجعل دورها يتقلص بشكل كبير، كما يطبع - من جهة أخرى- الترجمات الموجودة حاليا بكثير من التكرار وفلة الفائدة⁽¹⁾.

وهذا ما انتقل أوتوماتيكيا إلى المصطلح النقدي فنجد - في ثقافتنا المعاصرة- مرتبطا ارتباطا وثيقا بإشكالية انتقال النظرية، كما أنّ المدخل إلى إشكالية المصطلح عموما، والمصطلح النقدي بالخصوص، لا تبتعد عن دائرة وقوع الثقافة العربية في منطقة تعيد فيها قراءة المصطلح قراءة غير منتجة، وسواء أعلق الأمر بالمصطلح النقدي أم بالمصطلح الفلسفي، يتضح أن جل الممارسات النقدية العربية لا تفكك المصطلح ثم تعيد بناءه في مجال الممارسة المباشرة، فتقرأ خلفياته وواقعه، ومكان إنتاجه، وإنّا نقف في أغلبها عند حدود المساءلة والنقل لا غير.

1- الواقع المصطلحي:

لقد أصبح واضحا جليا أنّ حجم إشكالية المصطلح اللسانيّ والسيميائي - بوجه عام- أبعد ممّا تصوّر، وهي لا تقتصر - على مجال دون آخر، تتوالد معها المصطلحات مع ظهور النظريات اللسانية، وهي تشمل جميع مشاغل المثقفين والمفكرين في النقد الأدبي واللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وسواها من العلوم، وخاصة إذا أدركنا أنّ جميع الحقول المعرفية تتجدد بتجديد دلالات مصطلحاتها واستقرار مفاهيمها. ومن البين أنّ هذه المشكلة - في النقد النسقي خاصة- تُعدّ قضية جدلية قائمة في جلّ اللغات، لاسيما اللغات المستقبلية أو المستفيدة من النظريات والمصطلحات معًا من الحضارات الزائدة، وتنتسج دائرة المشاكل باتساع مجال الممارسة النقدية، وعدد الخاضعين في مجال المصطلحية، والسّاعين إلى خلق مشروع نقديّ ومصطلحيّ خالص، يخفف العبء على الباحثين في هذا المجال، ويسرّ لنا أمر القضية المطروحة، بحيث يستخلص الباحث - في هذا المجال- أنّ أولى العقبات التي تواجهه تتعلق بضرورة اعتماد مدونة تضمّ كلّ الرصيد المصطلحيّ العربيّ المعاصر، يساهم في إنجازها المشاركة والمغاربة على حدّ سواء، لا تنحاز لمصطلح دون آخر، إضافة إلى توافر شروط ومقاييس وطرائق علمية تحكم المصطلحات جميعا⁽²⁾.

2- ارتباك مصطلحي:

أظهر النقد الجزائري والعربي كلاهما فوضى في تطبيق المصطلح النقديّ السّقّي، دون إحكامٍ وعيٍ بالنظرية التي انبثق عنها، فالسرد - على سبيل المثال - يشمل أنواع القص من الحكاية والأشكال الموروثة الكثيرة كالمسامرة والتأدّة والطرفة إلى القصة والقصة المتوسطة والرواية، ونلاحظ أنّ نقّاد وباحثين رهنوا المصطلح السردّيّ بالقطعية المعرفيّة مع تاريخه ولغته العربيّة استسلاماً للتّرجمة والتّعريب، وعندما استعيرت مصطلحات علم السرد لتحليل التّصوص القصصيّة والروائيّة العربيّة، نجد من استنكر استعمالها، كما هو الحال لدى (على نجيب إبراهيم)، إذ يرى أنّ بعض المصطلحات سرعان ما تتغيّر وتُستبدل بمصطلحات أخرى، ممثّل على ذلك بمصطلحات (ضمير السرد/ وجهات النّظر السرديّة/ وصوت الرّاي (التبثير) والمقامات السرديّة وغيرها)، فبعد زمن قصير وبعد توالي التّرجات نضطرّ - والكلام للباحث - إلى تغيير المصطلحات تبعاً للتّغيير الحاصل في مصدرها، ونغيّرها على هوى ما نعتقد أنّه الأجدى من دون أيّ تنسيق، وتكون النتيجة فوضى مصطلحيّة تضاعف من أزمات النّقد ككلّ، فمصطلح القص (Récit) ينقلب إلى (الحكي والمحكي)، والبنية السرديّة (La Structure narrative) تنقلب إلى البنية الحكائيّة، وبالتالي تنقلب السرديات إلى الحكائيّات⁽³⁾.

يبد أن الاتكال أو الاعتماد بصفة مطلقة على الترجمة
فحسب يربك - في أحيان عديدة- المصطلح، ويُضَعِّف من
أدائه ووظائفه؛ إذا انقطع عن سياق خصوصية اللغة المنقول
إليها ونقصد الخصوصية الفكرية والاجتماعية، لأن المصطلح
التقديّ يبقى رهين الثقافة التي لها عميق الأثر في الدلالة
والتداولية.

وحتى لا يبقى كلامنا في حدود التنظير سنأخذ - فيما يلي -
نموذجاً لهذا الارتباك والتضارب المصطلحي مثلاً في مصطلحي
(السيميائية والسيميولوجيا) (Sémiologie, Sémiotique)
نجدهما يتداخلان في الكتابات الغربية تداخلاً كبيراً، ففي أكثر
الأحيان يوحيان بأنهما حدان لمفهوم واحد ويُتساهل في استبدال
أحدهما بالآخر، ممّا دعا جماعة من أقطاب السيميائية الكبار
(جاكوبسون، وغريماس، ولبنفي ستراوس، وبنفديست، وبارت)
إلى التوقيع على اتفاق اصطلاحي سنة 1968 ينص على

اصطناع مصطلح (Sémiotique) بينما نجد أنّ هذين المصطلحين قد ترجعا إلى العربية بحوالي 36 مصطلحا، ومنها (السّمياتيّات / السّمياتيّات / السّميائية / السّميائية / السّميويّة / السّميات / السّيامة / السّماتية / السّمياء / علم السّمياء / السّمولوجيا / السامولوجيا / علم السّماتييك / علم السّمولوجيا / السّمبوطيقا / السّمبوتيك / السّمبوتيكية / علم الرّموز / الرّمزية / علم الدّلالة / علم الدلالات / الدلالتية / الدلائليات / علم الدلائل / علم الأدلة / علم الدلالة اللفظي / الدلائلي / الدلائية / العلاميّة / العلاماتية / علم العلامات / علم الإشارات / نظريّة الإشارة / الإعراضيّة / دراسة المعاني في حالة سينكروتيّة...) (4)، وهذا غيض من فيض ، ودليل واضح وقاطع على أنّ قضيتة التعامل مع المصطلح عموما والسردّي بالخصوص لا تزال تشكل معضلة في مجال التطبيقات عند الباحثين العرب ، والذين حاروا ، بل

المصطلح	رشيد بن مالك	عبد الحميد بورايو	سعيد بن كراد	حميد لحيداني
Adjuvant	مساعد	مساعد	مساعد	مساعد
Opposant	معارض	معارض	معيق	معارض
Sujet d'état	ذات الحال	ذات الحال	ذات الحال	ذات الحالة
Sujet de faire	ذات الفعل	ذات الفاعل	ذات الفعل	ذات الإنجاز
Isotopie	ظاهرة / إيزوتوبيا	قطب دلالي	تناظر	؟
Syntagmatique	نظمي	نظمي	توزيعي	تركيبتي
Conjonction	وصلة	اتصال	اتصال	اتصال
Disjonction	فصلة	انفصال	انفصال	انفصال
Actant	عامل	فاعل	عامل	عامل
Performance	الأداء	الأداء	الإنجاز	الإنجاز
Séquence	مقطوعة	متتالية	مقطع	متتالية
Thématique	موضوعاتي (تيمي)	غرضي	تيمي	؟
Manipulation	استعمال - تحريك	إيمعار - تحريك	دفع - تحريك	الترغيب (في، عن)
Modalité	حجة كئيبة	صيغة	صيغة	؟

وتأهوا أحياناً أمام تراكمات اصطلاحية تحتاج إلى ضبط وتحديد ضمن إطار إبستمولوجي وتاريخي وإيديولوجي، ولا بأس من أن نأخذ عينة من التقاد وكتبهم التي صمّوها مصطلحات ذات مقابلات مختلفة، ومن ذلك:

إنَّ أوَّل ما يلاحظ على هذا الجدول هو الاختلاف القائم بين المترجمين على مستوى المصطلح، رغم أنَّه لا يفصل بين الجزائر والمغرب إلَّا حدود وهمية -خاصَّة من الجانب الثقافي، فكلُّ واحد منهم منظومته المصطلحيَّة الخاصَّة به، قد تقترب تارة وتبتعد تارة أخرى عن بعضها البعض، وإذا حاولنا فحص

أسباب الاختلاف نجدها أنها مرتبطة بمشكل نسقي لساني، أي شكل المصطلح العربي، بدليل أنه يعبر عن معطى ومفهوم واحد⁽⁵⁾.

ومن جهة ثانية نلاحظ أيضا التعدد في وضع المقابل للمصطلح الأجنبي، من ذلك مصطلح (Isotopie) فعربه (رشيد بن مالك) بـ (إيزوتوبيا) بعد أن وضع له مقابلا هو (التظيرة)، وقد ترجمه كل من (عبد الملك مرتاض) و (عبد القادر فيدوح) في دراستها الحديثة بـ (التشاكل) في حين نجد من التقاد من ترجمه بالتناظر أو القطب الدلالي، كما هو عند بورايو، ومن هنا نلمس تأثير المصطلح على الممارسة النقدية من نقص وقصور أدبيا إلى عجز التقاد عن المساهمة في بلورة جهاز مصطلحي عربي ثابت للخطاب السردى السيميائي أو النسقي عموما، وليس أدل على ذلك من غياب التنسيق بين الهيئات والجامع اللغوية والمؤسسات التعريبية، وبالتالي غياب التواصل الفعلي بين المشتغلين على تأسيس ونقل المصطلح واستخدامه في الحقول المعرفية⁽⁶⁾.

ويا ليت الأمر وقف هنا، بل ومن المؤسف- نجده يتعدى الحدود المصطلحية لينعكس على المفاهيم بالسلب، ومن ذلك مصطلح (علم الدلالة) مثلا، والذي اندرج لدى التقاد العربى والجزائري معا، مقابلا للمصطلح الأجنبي (Semantics/ Sémiotique)، ولا يزال حتى الآن اختصاصا لغويا شائعا في مختلف الجامعات الجزائرية والعربية أيضا، إلا أنه عاد ليظهر بمظهر جديد (مقابلا لمفهوم آخر هو السيميوتيك وليس السيمانتيكا كما كان) في عدد كبير من الإبداعات العربية النقدية الحديثة، ورغم أن علم الدلالة يحتوى سيميائيا عند الغربيين، لكن من غير أن يصبح هو هي، كما عند بعض العرب المعاصرين، وقد يقود الباحث الفضول إلى معرفة المصير العربى للمصطلح (Sémantique) بعد تجريده من مقابلة (علم الدلالة)، ويعود ليحمل الدلالة على السيميوتيك ونجده: (علم المعنى عند عبد الكريم حي وسمير عمر) و (علم الدلالات عند سمير حجازي) و (الدلالة عند عبد السلام المسدي) و (علم المعاني في المعجم الموحد للمصطلحات اللسانية)، بينما وجدنا مجمع اللغة العربية بالقاهرة يثبت مصطلحا إشكاليا آخر هو (السيمية)، والمؤسف أن هذا المصطلح رغم أنه قد قرر سنة 1962، إلا أن لا أحد أخذ به، وهذه إحدى مشكلات الجامع اللغوية التي تحرص

على التقاء اللغوي وتدير ظهرها للبعد الدلالي. ومن جانب آخر فإن هذا المصطلح يلتبس بصفة النسبة إلى مصطلح سيميائي آخر (Sème) في شكله المعرب المألوف عند عامة السيميائيين العرب (التحليل السيمي L'analyse Sémique)، الذي يتداخل مع نتيجة الاقتراح (المعجمي) (التحليل السيمي L'analyse Sémantique)، وحين تقدمنا إلى مصطلحات أخرى تحيل على علوم فرعية تنتمي إلى العائلة الدلالية الواحدة من طراز (Sémasiologie) و (Sémasiographie) و (Sématologie) واصطدنا بخلط اصطلاحى لا يكاد ينتهي⁽⁷⁾. قد يدخل الباحث في متاهات لا مخرج منها.

وفي مدونتنا النقدية نجد التقاد (عبد الملك مرتاض) مثلا يرفض أن يقابل مصطلح (دليل) مع (Signe) وحجته في ذلك أن الدليل يشير إلى معنى قريب من البرهان. ولا يراها تحيل سوى إلى مصطلح يفتقر إلى تأسيس من الوجهتين اللغوية والمعرفية معا، ولسبب آخر يذهب مع (عبد السلام المسدي) في الخط نفسه، وذلك برفض كل مشتقات مادة (دل. دلالة) في الخطاب السيميائي، التي أحلت - أو جعلت - مصطلحا من مصطلحات علوم اللسان في غير موطنه، لأن مادة الدلالة بمشتقاتها قد تركزت لعلوم المعنى، فكأنه في استعمال مادة الدلالة للتعبير عن السيميوتيك إحراج للغة، وإدخال الضيم على ألفاظها، باعتبار أن مادة (س. و. م) هي المكرسة أصلا لعلم العلامات، ومن المصادفات الألسنية العجيبة أن تلتقي هذه المادة العجمية العربية صوتيا ومعنى مع نظيرتها الأجنبية التي تقول جميعها إلى التواة اللغوية اليونانية القديمة (Semâ) بمعنى علامة (Signe)⁽⁸⁾. وفي السياق نفسه - الارتباك المصطلحي - يذهب الباحث المصرى عبد العزيز حمودة - في معرض نقده للمشروع النقدي الحداثي العربي - إلى أن المشروع النقدي البنيوي برمته في اعتماد النموذج اللغوي البنيوي في التعامل مع النص الإبداعي وتحليله أو (مقارنته) يقوم على الطموح لتحقيق عملية النقد، أليست صنو دقة الدلالة وتحديدها، فليس من المعقول أن نذكر الرّم (2) ونحن نقصد الرّم (3).

فوضى المصطلح الحداثي وما بعد الحداثي - إذن - تصيب الإدعاء بعملية الحادثة في مقتل، وبالناسبة - يقول الباحث - ليس صحيحا أن فوضى المصطلح ترتبط بالترجمة، ففي معجمه (المصطلحات الأدبية الحديثة) يعدد محمد عتاني واحد من

الأسباب المحزنة لفوضى المصطلح، إذ يقول إن الأمر قد استفحل حتى أصبح (موضة) فلم يعد أحد يستخدم كلمة (مشكل) أو (مشكلة) - على الإطلاق - تفصيلاً لكلمة الإشكالية وهي مصدر صطناعي من المادة نفسها، ولها معناها المجرد باعتبارها ترجمة لكلمة أجنبية هي *Problématique* (*) المأخوذة عن الفرنسية لفظاً ومعنى، والتي قد تعني القصة التي تجمع بين متناقضات، فهو يفضلها لغرابتها، طائفاً - بذلك - أنه يتفق أسلوبه، أو ينشئ عن العلم والحجاء، ولم يعد البعض يستخدم كلمة التناول أو المعالجة أو المنهج، لا بل ولا الدراسة مفضلاً كلمة (المقاربة) وهي ترجمة غريبة لكلمة (Approach) الإنجليزية التي لا تعني أكثر من أي من هذه الكلمات، وإن كانت قد توجي للقارئ بفيض عميم من المعرفة والتبحر في المذاهب الحديثة، لكن هذا مجرد قشرة يخدشها (محمد عناني) ليظهر الأبعاد الحقيقية لأزمة المصطلح فالأزمة كما يدركها هذا الباحث جيداً أو كما يشير في أكثر من موقع في معجمه - أخطر من ذلك بكثير. إن أزمة المصطلح ترجع إلى تركيبة متشابكة ومتداخلة من الأسباب؛ أبرزها خصوصية المصطلح النقدي، وخصوصيته الثقافية التي تفرزه، ثم نسبية المعنى عند نقل المصطلح من وسيط لغوي إلى وسيط آخر، وأخيراً نسبية المصطلح التي تحددها التغيرات أو التحولات السريعة في القيم المعرفية⁽⁹⁾.

بينما يذهب الباحث (حاتم الصكر) إلى أن استعمال نقادنا لمصطلحات هذه المناهج والتيارات الفكرية الغربية ومفاهيمها وطرائقها التي تجربها لتحليل النصوص؛ أفضى - إلى اضطراب مصطلحي، وأبسط مثال على ذلك أن الناقد (عبد الله الغدامي) (السعودية) وعبد الملك مرتاض (الجزائر) يصفان تحليلاتهما بأنها (تشرّحية) تعريفاً لمصطلح (Déconstruction) الذي ترجم إلى التفكيك أو التفكيكية، وليلاحظ القارئ ما بين المصطلحين من اختلاف، وأكد أن المصطلح ليس دالاً يشير إلى مدلول حسي - (واقعي) خارج العقل، ولكنه رمز لغوي سواء أدل على بسيط أم مركب. يشير إلى صورة ذهنية داخل العقل وليست خارجه، وهي حقيقة أدركها النقّاد القدامى وسبقوا بذلك (إمانويل كانط)، فأذهاننا كما يعتقد الباحث (صالح غرام الله زياد) "تصنع الواقع، وإن كل ما يكتسبه الواقع من تشكيل أو تنظيم إنما يفرض عليه من أذهاننا التي تأتي

بالإطار أو القالب الذي ينبغي أن تصب في الكثرة من الإدراكات غير المهضومة قبل أن تتصف بالمنطقية أو المعقولة"⁽¹⁰⁾. إلا أن المصطلح الحداثي كان إفراز فلسفة غربية تختلف جوهرياً عن منجزات العقل العربي وطرائق تفكيره، دون أن يعنى ذلك - بالضرورة - الحكم بدونية العقل العربي، أو تفوق العقل الغربي، وهذا يجزنا إلى القول بأن المصطلح يقوم - في جزء كبير منه - على نسبية الثقافة التي تفرزه، إلا أن نسبية الدلالة المصطلحية ليست صداماً أو خلافاً بين الثقافات سواء المنتجة أو المستهلكة المختلفة فحسب، بل وحتى داخل الثقافة الواحدة؛ لأن الحقيقة العلمية لا تكف عن التطور، فقد يبدو لنا - أحياناً - أن العلم قد وصل في جانب من جوانبه إلى رأي نهائي يمكن تثبيته، إلا أنه وسرعان ما يتجاوز هذا الرأي ويستعيز عنه برأي آخر⁽¹¹⁾، وكما هذا كثير في معظم صنوف المعرفة في أيامنا.

إن التغيير اللامتناهي في الدلالة العلمية للمصطلحات يفرض علينا عمليات تعديل مستمرة في الدوال ذاتها، فهي تحتاج منا إلى ما يسمى عملية تعديل دلالية متواصلة، ونعني - هنا - الصقل أو زيادة درجة المطابقة بين المصطلحين والمعنى المستخدم فيه، أو ضمان عدم الخلط بينه وبين غيره، مما يمكن أن يؤدي إلى الالتباس أو الغموض⁽¹²⁾، وتلافياً لهذا الارتباك في ثبتي المصطلحات والمفاهيم وترجمتها أو تعريبها، وجب على الباحثين العرب تبني إستراتيجية موحدة وفي كل مجالات المعرفة لإخراج النقد العربي من هذه المشكلة.

ويجب الإشارة - في هذا المساق - إلى أن المدونة النقدية العربية الحديثة، وفي دوائر منهجية مختلفة، قد تعاطت مع جملة من المصطلحات، بأنها مصطلحات لا تنتمي إلى حقل منهجي بعينه، بل يمكن لأي حقل منهجي تبنيها أو استيعابها، ويرجع إلى سببين:

أحدهما: أن طائفة من هذه المصطلحات وفي ثقافة وجودها الغربية ينتمي المصطلح فيها إلى حقول معرفية أو منهجية عديدة، وذلك بسبب التلاقي الدلالي أو التقاطع بين هذه الحقول، أو بسبب افتتاح هذه المناهج على بعضها، فالمنهج الأسطوري هو حصيلة للتنازع بين المنهج التقسي - والنقد الجديد، بينما المنهج الموضوعاتي هو مزوجة للمنهجين البنيوي والتفسي في أحضان الفلسفة الظواهرية، والأسلوبية هي المنهج الذي تولّد عن

وجود مفهوم واحد للمصطلحات الكثيرة مما أدى إلى ضبابية في فهم المصطلح، فوجد مثلاً مصطلح (الزواي) في السرديات يلتقي مع (المرسل) في السيميائيات مع (المتكلم) في نظرية التلطف؛ كما صادف -على سبيل المثال أيضاً- مصطلح Narrativité مشاكل جمة؛ إذ تُرجم بالسردية والقصصية والحكاية، فيتداخل مع لفظة العلم من جهة Narratologie سرديات وحكايات وعلم السرد مع الصفة Narratif⁽¹⁴⁾.

يختلف وضع المصطلح في العالم العربي -تماماً- عما مرّ عليه في أوروبا، ولم يرق بحكم التضارب المرجعي في المصطلحات المستعملة -إلى بلورة نموذج مؤسس لخطاب علمي دقيق يضبط مفاهيمه وأدواته الخاصة به سلفاً، إلى أن أصبح موضوع تداخل المصطلح اللسانياتي والسيميائي بالتدقيق موضع أخذ الكثير من اهتمام الباحثين، فعرض عدد غير قليل مصطلحات أجنبية معبرة عن هوية علوم أخرى، وهذا يعني أنّ اللغة كموضوع للدراسة قد درست من خارجها، أي من خارج المحيط الثقافي العربي، ومع ذلك فالتاريخ لم يسجل ولو للحظة واحدة استقلال النقد العربي المعاصر فيها استقلالاً تاماً من الناحية المصطلحية والمفاهيمية، رغم تمتعه بهويته الذاتية منذ قرون ووعي المشتغلين به⁽¹⁵⁾.

3- المصطلح النقدي الجزائري بين الإبداع والإتباع:

شهدت الساحة النقدية الجزائرية الحديثة - كظيرتها العربية - اهتماماً وفيراً بالمصطلحات النقدية النسقية في الشعرية أو السرديات، وقد عكف نقادنا - خاصة السيميائيون - منذ ثمانينيات القرن الماضي إلى ترجمة مصطلحات هذه المناهج أو تعريبها، أو البحث عن مقابلات لها في التراث العربي، أو توليد أو نحت المصطلحات من العربية، وقد نشط في هذا الحقل ثلة من نقادنا وبدرجات متفاوتة نذكر أهمهم: (عبد الملك مرتاض ورشيد بن مالك، ويوسف وغليسي، وعبد الحميد بورايو، ومولاي علي بوحاتم، وغيرهم). ويمكن تقسيمهم إلى صنفين، صنف حاول أن يبدع وصنف قام بتبني المصطلح الغربي.

أ- الإبداع:

ممن سعوا - من نقادنا - إلى تعزيز المصطلح النقدي في المناهج الحديثة في ساحتنا الباحث عبد الملك مرتاض، وقد جاءت محاولاته مزجا بين القديم والحديث - في أغلب الأحيان -

اللسانيات واحتضنته السيميائية، والتفكيكية هي امتداد للبنىوية واقطاع عنها في الوقت ذاته، والبنىوية التكوينية هي زفاف البنىوية الشكلانية إلى المنهج الاجتماعي، ولندعيم هذا الزعم أي التداخل الاصطلاحي بين الحقول المنهجية المتقاربة نأخذ قاموسين من أشهر القواميس العالمية المتخصصة في الدراسات اللغوية هما: قاموس اللسانيات لجون ديوي (Dictionnaire de linguistique) والذي يتضمن نحو 1903 مادة مصطلحية، وقاموس (غريماز وكورتيس Dictionnaire Raisonné de la théorie du langage) والذي يضم 645 مادة مصطلحية، وبعد الإحصاء الكمي والكمي معا يلاحظ الباحث أنّ الكم الاصطلاحي السيميائي يشكل نسبة 33.89% من الكم الألسني، (وقد يكون ذلك دليلاً مهماً لتدعيم فرضية (بارت) في شمولية الألسنية واحتوائها للسيميائية)، وإذا لم تكن هذه الملاحظة محمّة وذات بال، فإنّ الأهم هو أنّ القاموسين يتقاطعان في نحو 350 مادة مصطلحية مشتركة، بما يعني أنّ المعجم السيميائي محتوًى في المعجم الألسني بنسبة 55% وهي نسبة عالية، تفنّد فرضية استقلال هذا العلم عن ذاك.

ثانيهما: أنّ بعض النقاد العرب يشربون إلى تلخيص الممارسة النقدية من أسر المنهج الواحد، والدعوة إلى المزاجية بين المناهج المتعددة في الدراسة الواحدة، تكريساً للمساعي النقدية التكاملية أو التركيبية، ومن هؤلاء (سامي سويدان) والذي لم يمنعه انتماءه البنيوي من الإعلان عن قصور المنهج الواحد عن الإحاطة بالمعطيات الكلية للنص، لأنّ تعدد أبعاد النص وتنوعها يقتضي - مساهمة أكثر من منهج في استقصائها، وفي المقابل يعايش عبد الله الغدادي بين رباعية منهجية هي (البنىوية والأسلوبية والسيميائية والتفكيكية) والتي تنحدر كلّها من جدار ألسني موحد، ويحرص تركيبي أكبر يجمع عبد الملك مرتاض إلى تطبيق منهج نقدي مستوياتي - على حدّ تعبيره - لأنّه يتناول النص من مستويات مختلفة⁽¹³⁾. ويمكن للقارئ العودة إلى عناوين معظم كتبه ليتبين هذا التركيب المنهجي.

وقد ساعد على انتشار مشكلة ترجمة المصطلح في الساحة النقدية العربية ذلك الاختلاف بين بلدان المغرب والمشرق العربيين، كون الأولى تعتمد الثقافة الفرنسية بيد أنّ الثانية تميل إلى الثقافة الانجليزية، ممّا أثر في تبني المصطلحات وأدخل نقادنا في دوامة تداخل المفاهيم الدلالية للمصطلح الواحد، أو

وهذا ما جعله يصطنع كالعادة على الصّعيد الدلالي، وفي حدود منطلقات وآفاق مشروعه التقديّ المزاج بين التراث والحداثة، حقلين مصطلحيّين أساسيّين أحدهما بلاغيّ قديم، والآخر السّنيّ حدائيّ، وفي الحقيقة فإنّ عبد الملك مرتاض يعدّ من أكثر النّقاد العرب وعياً بأهمية المصطلح ومكانته داخل الخطاب التقديّ، ومن أشدّهم حرصاً على تجذيره وتأصيله وضبطه ومراجعته قبل الخوض في الممارسة والتّطبيق، لأنّه كان - دائماً - على وعي كبير بأنّ نواة المنهج ولبّه هو المصطلح، وأنّ الفشل في التّرجمة أو تعريبه عبر تأصيله وتأثله، ضمن طرائق فيلولوجيّة ومعرفيّة؛ هو فشل في مواجعة الخطاب الأدبيّ، وبالتالي المسار التقديّ عموماً، أضف إلى ذلك أنّ حرصه البالغ على الاهتمام بالمصطلح ومراجعته الدائمة والمستمرّة عبر تصحيحه وتطويره والاجتهاد في صياغة تحليلات موضوعيّة بشأنه؛ تكفل مقارنة نقدية صحيحة، وممارسة تطبيقية موقفة وسديدة، كان الدافع إليها ذلك الخلط وتلك الفوضى المصطلحية والمفاهيميّة التي تعجّ بها السّاحة التقديّة الحداثيّة الجزائريّة والعربيّة نتيجة غياب تنسيق عربيّ جماعيّ موحد في هذا المجال⁽¹⁸⁾.

ب- الاتّباع:

فيما عدا عبد الملك مرتاض - في ساحتنا التقديّة - لا نجد - تقريباً - باحثاً أو ناقداً حاول أن يبدع في المصطلح ويولّد أو ينجح أو يشقّق من اللّغة العربيّة، بل نلني جلّ نقادنا - إن لم نقل كلّهم - يأخذ مصطلحاته من المفاهيم الغربيّة مباشرة حتّى أنّنا - وفي بعض المرات - نجدها نقتقد للشّحنة الدلالية التي أريدت لها، ورغم أنّ محاولات هؤلاء كانت مهمّة كمّاً وكيفاً، ويمكن أن ندرج على رأس هؤلاء الباحث رشيد بن مالك لِمَا قدّمه في هذا المجال من أعمال معتبرة.

وإضافة إلى ما أنتجه - في مجال السّيميائيّة - من كتب نقدية، فقد دعى ذلك الشّغل بترجمة ثلاثة كتب عن السّيميائيّة أوّلها (السّيميائيّة أصولها وقواعدها)⁽¹⁹⁾ وثانيها كتاب (السّيميائيّة مدرسة باريس)⁽²⁰⁾ وثالثها كتاب (تاريخ السّيميائيّة)⁽²¹⁾ دون أن تغفل أنّه أوّل جزائريّ قام بتأليف قاموس مصطلحيّ يتعلّق بالسّيميائيّة⁽²²⁾ ثلاثي اللّغة تناول فيه (194) مصطلحاً بالترجمة والشرح والتّمثيل وبشكل وافٍ ومستفيض.

ويعتقد بن مالك - رغم هذه الجهود المبذولة - أنّ ترجمة المصطلح التقديّ عموماً والسّيميائيّ خصوصاً لا تبرح تراوح

انطلاقاً من وعي منهجيّ أصيل، وأفق معرفيّ منقّح، واجه مرتاض إشكالية قراءة النّصوص الأدبيّة من حيث منهجيّة المقاربة وتقنياتها وآلياتها، كما واجه إشكالية السّبك والضّبط المصطلحي من حيث حدوده وآفاقه وإجراءاته التّطبيقية، وحدود هذه الإجراءات، ومن ثمة التّساؤل عن قابليّة المصطلح للاندرج ضمن حقل معرفيّ معيّن وخاصّ، أو إمكانيّة انتشاره خارج هذا الحقل، وملامسة حقول معرفيّة أخرى قريبة أو بعيدة.

حاول مرتاض - ويقصد التّغلب على هذه المشكلة وتجاوز عقباتها - توظيف كلّ ما وجد في العربيّة من آليات اصطلاحية، مستمراً معظم ما يمنحه المعطى الفيلولوجيّ العربيّ من إمكانيّات هائلة للتّوليد المصطلحيّ كالاشتقاق والتّحت والتعريب والإحياء وغيرها، بما في ذلك محاولاته المضنية لتذليل مشكلة السّوابق واللّواحق التي تقتقر إليها اللّغة العربيّة، في مقابل اللّغات الأوروبيّة، باعتبارها لغات إلصاقية تعتمد بطبعها على هذا النظام في تشكيل معظم كلماتها، دون أن يتجنّى على قوانين اللّغة العربيّة، محترماً - من جانب آخر - قواعد اللّغة العربيّة، كما أنّه يلجأ في اختراق تلك القواعد في أحيان أخرى إذا دفعته الضّرورة المعرفيّة والدلاليّة كالنسبة إلى الجمع في (موضوعاتية/لسانياتية، مستوياتي)⁽¹⁶⁾.

كما نجد الباحث يعمد إلى اصطناع تقنيّة النحت كآلية لتوليد المصطلحات، إلّا أنّها تتسم بالغرابة - في بعض مظاهرها - عن خصائص اللّغة العربيّة وطرائق تركيبها ومن ذلك (الركبة) بمعنى (ركب مع عبر) والذي يقابل المصطلح الأجنبي (Syntagme) و(الجدلغة) أي (التجديد اللّغويّ) والذي يقابل المصطلح الأجنبي (Néologisme)، و(البدعة)، وهو مصطلح منحوت من الفعلين (بدأ وعاد) ليقابل به المصطلح الأجنبي (Récurrences)، وهي مصطلحات تنتشر - بكثرة خاصة في كنبه*، كما نجد الباحث يستند - في معظم ما ذهب إليه في هذا الاتّجاه - إلى جملة من المعايير أهمها المعيار المعجميّ والمعيار الاشتقائيّ والمعيار الفيلولوجيّ، ومعيار الشّيوخ، إضافة إلى معيار الإحياء⁽¹⁷⁾، وقد ساعده في ذلك ثقافته اللّغوية والتّراثيّة معاً.

ولعلّ مشروع مرتاض التقديّ - في هذا المجال - يقوم على التّغلب على مشكلة توليد المصطلح وضبطه وبالتالي تبيينه،

(Narrativité) الذي لا يخرج عن الترجمة والتعريب، فهو يطلق "على تلك الخاصية التي تختص نموذجاً من الخطابات، ومن خلالها نُميّز بين الخطابات السردية والخطابات غير السردية... ويحتوي الخطاب المرويّ عموماً على أحداث حكاية، أفعال بطولية أو غير بطولية. كانت الحكايات في وصفها للأفعال المطردة -حكايات فلكلورية، أسطورية، أدبية- مصدر التحليل السرديّ (وفق بروب ودوميزيل، وليفي ستراوس)⁽²⁴⁾.

كما حاول (رشيد بن مالك) في كتاب آخر هو (البنية السردية في النظرية اللسانية)، أن يخوض في تعريف المصطلح السرديّ، وشرح مفاهيم هذه البنية مثل (الحالة والتحويل) وموضوع القيمة، والبرنامج السرديّ، وضبط العلاقة الثنائية والموجهة، مستنداً في محاولته على شغل المنظرين الفرنسيين -الذين ذكرناهم قبل قليل- مستغرفاً - من جهة أخرى- في الشكلائية - مثلهم -، دون الأخذ بمستويات اللغة العربية وبخصائصها الثقافية⁽²⁵⁾.

ومن الأعمال التي قدّمت في مجال المصطلح وكانت ذات أهمية معتبرة -بالنسبة لنا- هو ذلك الكتاب الذي ألفه الباحث يوسف وغليسي «إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد»، وقد قسم الباحث الكتاب إلى شقين درس في الشق الأول المصطلح السياقي في النقد العربي، بينما درس في الشق الثاني - والذي يهمننا هنا- المصطلح النقديّ السقّي، والذي قسمه بدوره إلى حقول بدأها بالحقول البنيويّ حيث اقتصر في حديثه عن البنيوية الألسنية (Structuralisme Linguistique) والتي خصّص لها (جان بياجي) في كتابه (البنيوية)⁽²⁶⁾ الفصل الخامس والذي وصل فيه إلى قناعة مفادها أن البنيوية منهج وليس مذهباً²⁷ وقد ورد - حسب الباحث- في قاموس غريماس وكورتاس أن البنيوية - في معناها الأمريكي- تشير إلى إنجازات مدرسة بلومفيلد (Bloomfield)، مثلما تشير - في المعنى الأوروبي- إلى نتائج الجهود النظرية لأعمال مدرستي براغ وكوبنهاغن المتكئة على المبادئ السوسيرية، وهذا يعني أن البنيوية - مهما قيل عنها- لم تكن إلا تنويعاً لجهود ألسنية سابقة، تأتي على رأسها جهود المدرسة السوسيرية بزعامة العالم اللغوي (دي سوسير)⁽²⁸⁾، ثم يبدأ في عرض مصطلحات هذه المدرسة. وقبل ذلك عرض الجماعات التي تبنت هذا المنهج

مكاتها، ولعلّ سبب هذه الظاهرة اللا صحية هو المشاكل التي واجهت البحث السيميائيّ السرديّ ككلّ، فقلة البحوث في هذا المجال من جهة، والفوضى في ترجمة النصوص من جهة ثانية أخرت تطوّر هذا العلم.

ونجده يصرّح أنه بعد ما عاين الوضع المصطلحيّ في المعاجم والدراسات العربية المتخصصة لاحظ قلة البحوث في مجال السيميائية السردية عموماً والغرياسية بوجه خاص، إضافة إلى وقوعه على اضطراب كبير في المصطلحية المعتمدة في المدونة العربية، إضافة إلى تلك الفوضى في ترجمة النصوص، والأخطر من ذلك هو اختلاف بعض الباحثين العرب والذي يؤدي إلى تفرقة لا تؤسّس لخطاب علمي، ويرى أيضاً أن ترجمة الخطاب النقديّ المنجزة في إطار السيميائية السردية كثيراً ما تسقط في التعميمية، وتبقى - في معظمها- غير قادرة على بلورة المفاهيم النقدية التي افترضتها، أو اعتمادها على جزئيات مبتورة عن السياقات المنهجية التي انبعثت منها، والإشكالية البحثية التي انبثت عليها، والمرجعيات العلمية التي تحيل عليها، وإذا كان الخطاب السيميائيّ المعاصر - كما يعتقد بن مالك- مستعصياً - الفهم في لغته الأصلية، فإن الترجمة التي تتم به وبحكم تعبيرها، في أحيان عدّة، عن رغبة فردية لدى المترجم، بدلاً من أن تكون كرتة فعل لفعل معرفي جماعيّ يزيد من غموضا ويجعلها لا تفي بالغرض العلمي الذي تنبأه، ممّا أدّى - بالتالي- إلى غياب البحوث الجماعية والتنسيق بين الباحثين العرب بخصوص الأولويات التي ينبغي أن يحظى بها هذا التيار أو ذاك⁽²³⁾. إضافة إلى ظروف أو معطيات أخرى عديدة أخرت التقدير العربيّ عن هذه المعرفة.

وإذا عدنا إلى طريقة بن مالك في إتباعه للدلالة الغربية للمصطلحات التي يستعملها، فإنّ بعض التقاد يرى مبالغة في ذلك، لأنّ المصطلح السرديّ بتفرعاته مثل (الزاوي أو الفاعل أو فاعل المعرفة أو فاعل الاعتقاد) لا تتناهى مع الموروث السرديّ العربيّ أيضاً، بمعنى أنّ التعريب في المصطلح أرقى من مجرد الترجمة الحرفية، وقد سعى (بن مالك) أثناء وضعه لقاموس مصطلحات التحليل السيميائيّ للنصوص في صياغة معرفته للمصطلحات ضمن حدود الترجمة عن الأعلام الفرنسيين أمثال (جيرارد جينيت وإميل بنفينيست، ألجيرالد غريماس وجوزيف كورتيس وغيرهم) ولناخذ مثلاً- صياغة المصطلح (سردية

الهوامش:

- (1)- سعيد يقطين وفيصل دراج، أفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر المعاصر سوريا، لبنان، 2003، ص ص 55-56.
- (2)- ينظر: مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيماءوي (الإشكالية والأصول والامتداد) منشورات إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2005، ص ص 147-148.
- (3)- عبد الله أبو هيف، المصطلح السردي تعريفا وترجمة في النقد العربي الحديث، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سوريا، 2006، ع 1، ص 27.
- (4)- للتفصيل أكثر فقد وضع يوسف وغليسي- جدولا للمصطلحات ولأصحابها والمراجع التي وجدت فيها والصفحة. ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، من الصفحة 101 إلى الصفحة 107.
- (5)- ميلود عبيد منقور، إشكالية المصطلح النقدي (مصطلحات السيميائية السردية نموذجاً)، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ع 104، السنة 26، كانون الأول 2006، الصفحات 52-53-54.
- (6)- المرجع نفسه، ص 55.
- (7)- ينظر: يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، الصفحات 108 إلى 111.
- (8)- ينظر: المرجع نفسه، ص ص 113-114.
- (*)- جاء في قول الناقد Problematic وهي كلمة إنجليزية ثم يقول فرنسية فقمنا بتصحيحها.
- (9)- ينظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، مطابع الوطن، الكويت، 1422هـ/ 2001م، ص ص 92-93.
- (10)- صالح غرام الله زياد، المصطلح الأدبي بين غناه بالمعرفة وغناه بالتاريخ، عالم الفكر، مجلد 18، ع 3، مارس 2000، ص 99 نقلاً عن عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص 94.
- (11)- عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، ص ص 94-95.
- (12)- ينظر: المرجع نفسه، ص 95.
- (13)- يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقد العربي الجديد، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، الصفحات 145-146-147.
- (14)- سعيد يقطين، قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، 1977، ص ص 14-15.
- (15)- مولاي علي بوخاتم، مصطلحات النقد العربي السيماءوي، ص ص 124-125.
- (16)- للتفصيل أكثر في مثل هذه القضايا وغيرها عند مرتاض براج، يوسف وغليسي، إشكاليات المنهج والمصطلح في تجربة عبد الملك

وهي: (الشكلانيون الروس Formaterions russes) والتي تضم حلقتي موسكو (1915-1920) وجماعة الأبونا (1916) وحلقة براغ (1926-1948) وجماعة (Tel quel) 1960.

وبعد ذلك يتوقف عند الجهاز المصطلحي لهذه المدونة وقد رأى أنها تتفرع إلى ثلاثة أشكال:

1- البنيوية الشكلانية: ومن أهم مصطلحاتها:

1- البنية: Structure والبنيوية Structuralisme، المحايثة الآتية Synchronie والزمانية Diachronie.

2- البنيوية التكوينية: (Structuralisme génétique) وتقوم على مفهومين متلازمين هما: الفهم Compréhension والشرح Explication.

3- البنيوية الموضوعاتية: وجهازها المصطلحي هو كالآتي: الموضوع (Thème) والموضوعاتية (Thématique)، التكرار والذي يأتي تحته المصطلحات (Fréquence) و (Répétition) و (Itérativité) و (Redondance) و (Récursivité) و (Récurrence)⁽²⁹⁾.

وبعد هذا العرض المختصر نشير إلى أن هذه الدراسة اعتمدت في تعريفها للمصطلحات التي ذكرها، والتي تلت ذلك اعتماداً شبه كلي على المصادر الغربية، أو على مراجع عربية اعتمدت - هي الأخرى - اعتماداً كلياً على المراجع الغربية، ويمكن للقارئ أن يعود للكتاب ويلاحظ ذلك بسهولة.

وختاماً يمكن القول أن المصطلح التسيقي في النقد العربي وفي النقد الجزائري - ورغم تلك العثرات والهتات - إلا أنه لا يزال يشق طريقه نحو بناء جهاز مصطلحي عربي موحد، فكل البدايات تكون عرضة للإخفاق والتردد والارتباك، ولقد وجدت هذه المشكلة صدى لدى كل النقاد العرب ولدى الهيئات المختصة في هذا الشأن.

كما أن المصطلح التقديري ورغم ما قيل ويقال عنه استطاع أن يكتسح الساحة النقدية العربية ويزرع فناءات جلّ - إن لم نقل كل - نقاد العربية بحيث غيروا طرائقهم في تلقي التصوص وتحليلها، ونعتقد أن آفاق المصطلح تبدو لنا أكثر وحدة وتنظيماً ودلالة لدى النقاد العرب مستقبلاً.

خلف الله بن علي

- مرتاض النقدية، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر، 1995-1996، الصفحة 312 وما بعدها.
- (*)- النص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ / شعرية القصيدة - قصيدة القراءة / نظرية القراءة / الكتابة من موقع العدم / نظرية النص.
- (17)- ينظر: قادة عقاق، هاجس التأصيل النقدي لدى عبد الملك مرتاض بين وعي التراث وطموح الحداثة، مجلة نزوى، ع.38، أبريل. 2004، مؤسسة عمان للصحافة والنشر-الإعلامي، سلطنة عمان، ص.274.
- (18)- المرجع. س نفسه. ص.275.
- (19)- ميشال أرفيه، السيميائية أصولها وقواعدها، تر. رشيد بن مالك، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2002.
- (20)- جون كلود كوكي، السيميائية مدرسة باريس، تر. رشيد بن مالك، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.
- (21)- آن إينو، تاريخ السيميائية، تر. رشيد بن مالك، دار الآفاق ومنشورات محبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر، الجزائر، 2004.
- (22)- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، (عربي / انجليزي / فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000.
- (23)- رشيد بن مالك، قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص، ص.11.
- (24)- ينظر: المرجع نفسه، ص.121.
- وينظر: عبد الله أبو هيف، المصطلح السردي تعريفا وترجمة في النقد الأدبي العربي الحديث. ص.34.
- (25)- ينظر: عبد الله أبو هيف، المصطلح السردي تعريفا وترجمة، ص.35.
- (26)- Voir : Jean Piaget, le structuralisme, 6eme Edition, PUF. Paris, 1974, p.05.
- (27)- ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص.111.
- (28)- ينظر: المرجع نفسه، ص.111.
- (29)- ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الصفحات من 11 إلى 173.